الرسالة المحمّديّة وارتباطها بالقرآن الكريم
في عيون رودي بارت

د. سارة دبوسي[1]

مقدّمة

يساورنا الشكّ والحيرة في الفهم والإفهام حينما نتناول إشكالًا دينيًّا بهذا التعقيد والكبر على المستوى الكمّيّ والكيفيّ، فضلًا عن غزارة مادّته العلميّة وتشعّب مدلولاته الفكريّة، ولذلك فموضوع هذا الكتاب يثير العديد من الإشكالات العقديّة المزعزعة والمربكة للفكر في آن؛ لتعدّد إرهاصاته وتضاربها في آن.

فأن تكون الرسالة المحمّديّة وارتباطها بالقرآن الكريم والإسلام موضوع بحث واهتمام من قبل بعض المستشرقين[2]، فهذا يدلّ بدرجة أولى عن مدى عمق الموضوع المطروح ووجاهته للدراسة من جهة باعتبار أنّ الغوص في ثنايا الديانات السماويّة من الجهة المقابلة ليس بالأمر الهيّن، ولا يخلو من دوافع متعدّدة المشارب، ومن جهة أخرى فهذا الاهتمام يعكس لنا نظرة الغرب إلى الدين الإسلاميّ على وجه الخصوص. ولا سيّما لدى مفكّر ومترجم لاقت أفكاره التي تهتمّ بالإسلام انتشارًا جماهيريًّا واسعًا، سواء أكان في الدول العربيّة أو الغربيّة، ذاك هو المستشرق الألمانيّ رودي باريت.

انخرط الفكر الغربيّ منذ القرن الثامن عشر في توجّه فكريّ يدعى الاستشراق، في الاهتمام بالعالم الإسلاميّ والدين الإسلاميّ على وجه الخصوص، وقد كان بارت من أهمّ المفكّرين

---

١. باحثة وأستاذة الفلسفة في جامعة قفصة – تونس.

٢. مجموعة من العلماء والمفكّرين الغربيّين الذين تناولوا ثقافة الشرق وحضارته بالدراسة والتحليل والترجمة.

الألمان الذيــن انصبّ اهتمامهم في هذا المبحث الذي وجّه أنظــاره نحو العالم الشرقيّ، وبدأ في فهمه بصفة أحاديّة الجانب.

وبهذا النوع من الاشتغال المعرفيّ الذي يقوم على الذهنيّة التي تترجم كيفيّة الفهم الأحاديّ الــذي وجّهه الغرب للشرق من دون أن يتمكّن الشرق من التعريف بنفســه، كما هو في الواقع القائم، وفي صلب هذه الإســتراتيجيّة المعرفيّة تنخرط أفكار المســتشرق الألمانيّ المعاصر رودي بارت.

وفي صلب هذه الإستراتيجيّة المعرفيّة، التي اهتمّت بالبحث في العالم الشرقيّ بما اشتمل عليه من مفاهيم كالإســلام، المسلمين، الرســالة المحمّديّة والوحي، أخذنا مسألة الرسالة المحمّديّة في علاقة متّصلة بالقرآن الكريم موضوعًا لبحثنا من وجهة نظر رودي بارت طبعًا، وقد صوّبنا بحثنا نحو المفهوم المركزيّ في خطاب الاســتشراق، وهو مفهوم الإسلام،؛ لكونه يمثّل مسألة رئيسة ومفصليّة في هذا التوجّه الفكريّ.

هذا، وقد احتل مبحث الإســلام والســيرة النبويّة والقرآن مكانة مهمّة في فكر المستشرق الألمانيّ رودي بارت، ويتجلّى ذلك من خلال تحليله وتفكيكه العميق للنصّ القرآنيّ، والاجتهاد في الإمســاك بأهمّ الأفكار التي احتوى عليها، وإصداره لأحكام ســعى من خلالها إلى تشكيل جملة من الأفكار والرؤى حول الإسلام والمسلمين وعلاقتهم بالنبيّ محمّد والقرآن الكريم.

ومن هنا يكون اشتغالنا البحثيّ متعلّقًا أساسًا بالرؤية التي قدّمها رودي بارت حول الرسالة المحمّديّــة وارتباطها بالقرآن الكريم الكامن في جوف الفكر الغربيّ، وكيفيّة تناوله لعالم الشرق وفقًا لتصوّره الأيديولوجيّ له كمفهوم مركزيّ في مجمل أبحاثه ودراساته التي وجّهها نحو عالم الشرق، ومن هنا يكون التساؤل مشروعًا:

كيف تعامل رودي بارت مع القرآن الكريم والرسالة المحمّديّة؟ وكيف كانت رؤيته للقرآن والمســلمين على وجه الخصوص؟ وما هي أهمّ البراهين التي استند إليها؟ وإلى أيّ مدى أثّرت قراءاته في الفكر العربيّ الإســلاميّ؟ وفيم تمثّلت مواقف المفكّرين العرب حيال هذه الأفكار؟ وهل يمكن الجزم بأنّ للديانتين اليهوديّة والمسيحيّة دورًا مهمًّا في تشكّل شخصيّة النبيّ محمّدﷺ أم أنّ ذلك مجرّد افتراء عارٍ من الصحة؟

وبناء عليه، سنعمل ضمن هذا البحث على تقديم الاستشراق الألمانيّ في نقطة أولى، ثمّ سنذهب في الفصل الثاني من البحث إلى تقديم قراءة في المشروع الاستشراقيّ لرودي بارت، أمّا الفصل الثالث، فسنبحث فيه عن أهمّ مزالق العقيدة التي وقع ضمنها بارت، وسيكون الفصل الأخير تتويجًا للبحث من خلال التفكير مع بارت وضدّه.

أوّلًا: الاستشراق الألمانيّ

الاستشراق الألمانيّ هو تيّار فكريّ، شأنه شأن باقي التيّارات الغربيّة التي اهتمّت بدراسة العالم الشرقيّ وعلومه وحضاراته وثقافاته، إلّا أنّه تميّز عن غيره من المدارس الاستشراقيّة الغربيّة الأخرى من خلال اهتمامه بالتخصّصات البينيّة التي تساعده على إصدار أعمال شاملة عن الشرق، هذا فضلًا عن اهتمامه الواسع بالنظم الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وخاصّة الدينيّة، وذلك ما جعل من دراستهم للشرق دراسة تتّسم بالشمول والموسوعيّة، إذ إنّ هذه المدرسة الاستشراقيّة انفردت وتميّزت خلال القرن الحاليّ باهتمامها الواسع بالدراسات القرآنيّة.

إن تميّز المدرسة الاستشراقيّة الألمانيّة عن غيرها من المدارس الأخرى هو عدم اتّصافها بروح العدائيّة حيال العلم الشرقيّ؛ وذلك لأنّ ألمانيا لم يتح لها فرصة استعمار البلاد العربيّة أو الإسلاميّة «إنّ البحث في الاستشراق الألمانيّ قد ضاعف طرق بحث هذا الموضوع، فكافّة المقالات تحاول أن تبرهن على رؤية هذا المفهوم في إطار قوميّة وإمبرياليّة وليست استعماريّة»[1]، ورغم أنّ أغلب الدراسات الاستشراقيّة الألمانيّة لم تكن تتّسم بروح العدائيّة، إلّا أنّ أغلب مفكّريها وقعوا في الخطأ، وانحرفوا عن طريق الحقّ والصواب، وهو إشكال لا يمكن تعميمه على كلّ الدراسات، باعتبار أنّ بعض الدراسات أنصفت الشرق وقدّمت أهمّ الوقائع بكلّ حياد وموضوعيّة، ولم تدخل في سجال تفوّق الـ«نحن» على الـ«هم».

فما ميّز الاستشراق الألمانيّ أيضًا هو ميل غالبيّة مفكّريه نحو الاهتمام بالدراسات المعاصرة ودراسة العلوم الإسلاميّة على وجه الخصوص؛ وذلك لتوقهم وشغفهم بهذه العلوم، فبذلوا

١. جينكيز، الاستشراق الألماني (المدخل)، ٢٥.

فيها مجهودات جمّة لأجل التعريف بها، وتسهيل الولوج إليها لغير العرب والمسلمين، ولنا في كتابات رودي بارت خير شاهد على ما نقول. فكيف تمثّلت أفكار بارت في هذه العلوم؟ وما هي الإضافة القيميّة التي أثرى بها الدراسات الاستشراقيّة؟ وفيم تمثّلت هذه الأفكار؟

ثانيًا: قراءة في المشروع الاستشراقيّ لرودي بارت

١. في التعريف بالمستشرق الألمانيّ المعاصر رودي بارت

رودي بارت (١٩٠١-١٩٨٣م) علم من أعلام المستشرقين المعاصرين في ألمانيا، اهتمّ في بداية مساره الاستشراقيّ بالأدب الشعبيّ، ثمّ انصبّ اهتمامه نحو دراسة اللغة العربيّة والدراسات الإسلاميّة، وبصفة خاصّة نحو القرآن الكريم، الذي قام بترجمة معانيه إلى اللغة الألمانيّة مع شرح فيلولوجي في مجلّد خاصّ بذلك، والتعليق على الترجمة في مجلّد ثانٍ «العمل الأساسيّ الذي ارتبط به اسم رودي بارت هو ترجمة القرآن إلى اللغة الألمانيّة في مجلّد والتعليق على الترجمة في مجلّد ثانٍ. وفي هذه الترجمة لم يشأ بارت أن يدخل في مغامرات رتشيرد بل (Richard Bell) الذي قطع سور القرآن تقطيعات اعتباطيّة لم يبيّن دواعيها وأسبابها (...)، بل ترجم القرآن بحسب الترتيب العثمانيّ المتعارف عليه بين المسلمين منذ ٣٠هـ (تقريبًا) حتّى اليوم»[١].

فما من شكّ في أنّ ترجمة كتاب الله أي كتاب العربيّة الأكبر، والذي بناء على التعاليم والنصوص التي أتى بها تمّ بناء الحضارة الإسلاميّة، فإنّ ذلك قد ساهم في تحقيق التواصل الحضاريّ وتبادل الأفكار والخبرات الإنسانيّة بين الشرق والغرب، ولعلّ الفضل يعود هنا لجلّ المترجمين لكتاب الله، وخاصّة للترجمة التي قدّمها بارت.

هذا وتعدّ الترجمة التي قدّمها بارت للقارئ الغربيّ من أهمّ الترجمات الاستشراقيّة باللغة الألمانيّة؛ إذ تعتبر هذه الترجمة مرجعًا أساسيًّا لدى الباحثين والمهتمّين بشأن الاستشراق في ألمانيا على وجه الخصوص، وذلك لما تتميّز به هذه الترجمة من شروحات وتعليقات صاغها صاحبها بأسلوب علميّ دقيق سهّلت على المتقبّل فهمها.

---

١. بدوي، موسوعة المستشرقين، ٦٢.

ولكـي يتمكّن الناطقون بغـير اللغة العربيّة من فهمه واسـتكناه مضامينه ومقاصده التزم بـارت اتّباع الدقّة في الترجمة التي كانت على حسـاب جماليّة العبـارة في الألمانيّة. له العديد من المؤلّفات: شـأن محمّد والقرآن، والقرآن تعليق وفهرست، الدراسـات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة: المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه... إلخ.

وفيما يتّصل بترجمته للقرآن الكريم، فقـد التزم بارت الدقّة والموضوعيّة العلميّة، وإن كان ذلك على حساب المعنى الجماليّ للترجمة الألمانيّة للعبارات، وذلك من خلال اعتماده على البساطة والدقّة في تفسـيره للمعاني القرآنيّـة؛ لكي يتمكّن غير الناطقين باللغـة العربيّة من فهم معانيه واستنباطها بكلّ سلاسة.

ما تجدر الإشـارة إليه أيضًا هو أنّ اهتمام بارت الواسع بالعالم الإسلاميّ هو ما جعله يعمل قصد الإلمام بقضيّة الإسـلام بما اشـتملت عليه من القـرآن والدعوة المحمّديّـة، وربّما هذا ما جعله يدوّن العديد من الكتابات أو ما يعرف بالرسـائل الصغيرة عن القرآن، شأن كتاب محمّد والقرآن، الذي أراد من خلاله تفسير وتقريب حقيقة الرسالة التي حملها النبيّ محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام لغير المسلمين.

لقد أمضى بارت مدّة لا يُسـتهان بهـا في مصر لأجل البحوث والتحقيقـات العلميّة التي ساعدته على فهم العديد من القضايا التي لا يمكن فهمها إلّا بالاندماج والاحتكاك بالمجتمع، وما يزيد هذه الإقامة من أهمّيّة هو أبعاد الرحلة التي يقوم بها كلّ مسـتشرق إلى بلاد المسـلمين يروم استكناه خفايا هذه البلاد، وذلك ما ينعكس من خلال إنتاجه العلميّ والمعرفيّ.

٢. شخص النبيّ الكريم محمّدﷺ عند بارت

انتقد بارت علنًا وفي عدّة مواقف نزاهة وصدق شـخص النبـيّ محمّدﷺ، حيث اعتبر أنّ محمّدًاﷺخـلال فترة إقامته بمكّة كان صادقًا؛ لأنّه اعتمد على رسـالته النبويّة في حين تخلّى عن ذلك حينما هاجر إلى المدينة، أي تحوّله من داعية إلى الله يؤمن برحمته وقدرته إلى التحمّس الشديد للإنذار باليوم الآخر.

هذا فضلًا عن تناوله لمسألة زواجه من خلال ذكر أنّ النبيّ اكتفى بالزوجة الواحدة خلال الحقبة المكّيّة إلى تعدّد الزوجات بعد الهجرة التي بلغت ثلاثة عشرة زوجة، والحال أنّ المسلم يحقّ له أربعة فحسب، في حين أنّ محمّدًا قد تجاوز هذا العدد بكثير. وقد أرجع بارت هذا التعدّد إلى موقعه ومقامه الذي يسمح له بذلك، خاصّة بعد وفاة خديجة، «فباعتباره قائدًا للجماعة الإسلاميّة بالمدينة؛ فإنّ محمّدًا بالفعل يعرض علينا شخصيّته في ضوء جديد يختلف عن زمن ما قبل الهجرة»[١].

كما انتقد ظاهرة النزاع التي كان محمّدﷺ يدعو المسلمين لخوضها مع غير المؤمنين برسالته، وما سمّاه من جهاد في سبيل الله، الذي بات عبارة عن واجب يجب على المؤمنين القيام به، والحال أنّ الدين الإسلاميّ لم يرغم أحدًا على اعتناقه مكرهًا، إلّا أنّ دعوة محمّد إلى القتال باتت بنظره منافيّة لتعاليم القرآن.

هذا فضلًا عن نقده للقواعد الإسلاميّة المتعارف عليها في الحرب، وكيف خرجت الجماعة الإسلاميّة عنها مثل قطع نخيل بني النضير أثناء الحصار، والذي يعدّ خروجًا على قواعد السلوك في الحرب وضروراتها، كما أنّ مهاجمة المسلمين لقافلة أهل مكّة قبل انقضاء شهر رجب، الذي يعدّ من الأشهر الحرام، ما يعني أنّ المسلمين أتباع النبيّ محمّد قد نقضوا عهدهم وأتوا بخلاف ما كان يدعو إليه محمّد.

ومن بين المآخذ التي يأخذ بها بارت شخص النبيّ محمّد والمسلمين عامّة هو اغتيالهم لخصومهم السياسيّين من اليهود الذين يمثّلون خطرًا بالنسبة لهم، من أمثال اليهوديّ المسمّى كعب بن الأشرف الذي هجا المسلمين في أشعاره، وتضامن مع قريش في واقعة بدر، وقد اعتبر أنّ النبيّ محمّد مسؤول أو مشارك في الاغتيال؛ لأنّه وافق على تنفيذه «في تعليق للواقديّ إذن على حادثة اغتيال كعب بن الأشرف يرد التالي (...) فقال رسول اللهﷺ: إنّه لو قرّ كما قرّ غيره ممّن هو على مثل رأيه ما اغتيل، ولكنه نال منّا الأذى وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحد منكم إلّا كان له السيف»[٢].

١. بارت، محمّد والقرآن، دعوة النبيّ العربيّ ورسالته، ٢٤٧.

٢. م. ن، ٢٥٤.

هذا ولم يتوقّف بارت من تشويه شخص النبيّ محمّد، وإنّما وصفه بالوثنيّة حينما دعا إلى الإسلام، ولعلّ مسألة الحجّ خير برهان على ما يقول، حيث اعتبر أنّ المكّيّين يقدّسون الحجر الأسود، والكعبة تمثّل رمزًا على مكان الألوهيّة، وهذه الاتهامات تعود في الأصل إلى بيئة شبه الجزيرة العربيّة التي ترعرع ضمنها محمّد وما اكتنفها من تصوّرات وثنيّة.

وما تجدر الإشارة إليه أيضًا هو أنّ بارت قد استند إلى العديد من الوقائع والأحداث التاريخيّة لكي يبرهن على صحّة أفكاره، والحال أنّها زائفة أريد بها باطل، خاصّة حينما يربط بعض الوقائع التي تحدّث عنها القرآن الكريم على لسان النبيّ محمّد ويرجعها بارت لما يتوافق وتحقيق النبيّ لأهدافه ومآربه الخاصّة، والحال أنّ الله هو من طلب منه فعل ذلك، وليس هو من أراد ذلك. فما يسترعي انتباهنا ضمن تناوله لمسألة الأذى الجسديّ لمحمّد من عدمه، هو رفض بارت القاطع القول إنّ النبيّ قد تعرّض للأذى الجسديّ؛ وذلك نظرًا للمكانة التي يشغلها في قريش ودفاعهم المستمرّ عنه، والحال أنّه تعرّض لشتّى أنواع الأذى، وقد دافع عنه بعض أصحابه، وهذا ما أجمع على قوله أهل السير النبويّة.

إنّ المتتبّع لأفكار بارت يجد العديد من الافتراءات على النبيّ محمّد، ولعلّ من بين هذه الافتراءات ادّعاؤه أنّ محمّدًا كان يتعامل بقسوة مع اليهود حينما رفضوا اتّباع دعوته إلى الإسلام، كما أنّه زعم أيضًا أنّ الرسول كان يرغب في تأييد اليهود لدعوته، والحال أنّ معظم الوقائع التاريخيّة تؤكّد عكس ذلك.

٣. موقف بارت من الوحي

حين انطلق في البحث ضمن الدراسات الاستشراقيّة المتخصّصة في علوم القرآن والسيرة النبويّة، جعل بارت من مبحث الوحي المحمّدي من أولى المسائل التي تناولها بالبحث والتحليل؛ وذلك لما لهذه الظاهرة من خصوصيّة وأهمّيّة جعلتها تتفرّد عن غيرها من الظواهر الدينيّة الأخرى التي تناولها بالدرس ضمن مبحثه الاستشراقيّ المعاصر.

ولمّا كان الوحي يمثّل الأساس والمنطلق الذي بناء عليه يتمّ ترتيب الحقائق الدينيّة بشتّى

عقائدهـا وتشريعاتها، وهذا ما جعل من بارت يهتمّ بهذا الإشـكال من أجل تحليل وفهم هذه الظاهرة، وذلك من خلال تناوله من زاوية السيرة المحمّديّة من أجل الظنّ بها، وربطها بشخص محمّـدﷺ، وبالتالي إلغاء مصدرها الخارجيّ، كما ذهب إلى ذلك العديد من المسـتشرقين الألمان السابقين لبارت في تناولهم هذه المسألة.

يطلق مفهوم الوحي في اللغة العربيّة إذًا على الإشارة والإيماء والإلهام والكلام الخفيّ الذي يقع في النفس، وهذا ما نصّ عليه وأكّده القرآن الكريم في العديد من الآيات كقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ**﴾ (المائدة: ١١١).

إذًا تتمثّل ظاهرة الوحي في عمليّة إرسـال واسـتقبال من قبل الأنبياء والقوّة الخفيّة الغيبيّة لله في ضرب من الخفاء والسرعة، ويكون ذلك في حالة إدراك متماسكة يسيطر فيها الوعي على المتقبّل(النبيّ)، وهذا ما أكّده الله تعالى بقوله: ﴿**كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (الشورى: ٣).

قبـل خوضه في إشـكال حقيقة التجربـة المحمّديّة الأولى مع الوحـي الإلهيّ ضمن تجربة الرسالة والتكليف التي أوكلت للنبيّ محمّدﷺ من عدمه، فقد عاد بارت إلى عدّة مرويّات محلّيّة وشـواهد قرآنيّة للتدليل على ما يقول، حيث ذهب إلى القول بـأنّ محمّدًا قد تلقّى الوحي وهو في سـنّ الأربعين أو أكثر خلال شـهر رمضان شـهر الصوم، ولكي يبرهن على صحّة ما يقول فقد عاد إلى سورة البقرة من خلال الآية القائلة: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾ (البقرة: ١٨٥).

هذا ولم يقف شكّ بارت في الشهر الذي نزل فيه الوحي، أي القرآن، على النبيّ محمّد فقط، بـل تعـدّاه إلى البحث عن اللحظة التي نـزل فيها الوحي، تحديدًا من خلال عودته إلى سـورة القـدر؛ ليشـكّك مجدّدًا في أنّ الوحي ربّما لم يكن قد نزل كلّـه في تلك الليلة، أي ليلة القدر، بل بداية الوحي والتي يعارض أن تكون في العشرة الأواخر من شهر رمضان.

فمن خلال نبشه في تقارير المؤرّخين والأحاديث يعود بارت ليستدرك من جديد إلى القول بأنّ الوحي بدأ مع النبيّ الكريم في صورة رؤى كان يراها في منامه، ولكنّها صادقة، وذلك من

خلال عودته إلى سورة النجم من القرآن الكريم وتدقيقه في آياتها ومعانيها، ولكنّه بتوجّهه لسورة التكوير ومناقشته لآياتها ومقارنتها بآيات سورة النجم، صار في ريبة وحيرة حول من ينقل الوحي لمحمّد، أهو الله أم جبريل؟ لأنّ سورة النجم تدلّ على أنّ الله هو من ينقل الوحي لمحمّد، في حين تقرّ سورة التكوير بأنّ جبريل هو من ينقل له الوحي، وهذا التناقض هو ما دفع بارت إلى القول بأنّ محمّدًا قد وقع في مشكلة اعتقاديّة، وذلك من خلال إقراره من خلال سورة النجم أنّه رأى الله، والحال أنّ أحد البشر لا يستطيع أن يرى الله في هذه الدنيا، وهذا ما أقرّه في سورة التكوير حينما تقدّم في مسار الدعوة والخبرة.

هذا، ويذهب بارت بعد ذلك إلى التشكيك أكثر في نبوّة الرسول الكريم محمّد من خلال اعتبار الرؤى والمشاهد التي رآها مجرّد أحلام لا مشاهد بصريّة فعليّة، ولا ينبغي الاعتماد عليها؛ لأنّ في دعوته لا يعتمد على المواقف والمناسبات«والأقرب إلى العقل في فهم ذلك أنّ النبيّ ما كان يعتبر الرؤى مهمّة وأساسيّة في رسالته. فلا شكّ أنّ وعيه بالرسالة كان يتقوّى بتجربة الرؤى؛ لكنّ نبوّته ما كانت تعتمد على ذلك»[١].

كما مثّل الجانب اللغويّ للقرآن أيضًا مشغلًا مهمًّا لدى بارت، حيث أرجع الكساء اللغويّ للوحي القرآنيّ إلى النثر والمسجوع والكهانة، وذلك من خلال تحليله لجملة من الآيات القرآنيّة في سورة العلق وسورة البلد، التي يتجلّى من خلالها السجع اللغويّ الذي يمتدّ من آيتين أو ثلاث، وهذا الشكل اللغويّ المتلبّس بالنثر المسجوع يفضي إلى الأسلوب اللغويّ الذي اتّبعه العديد من الكهّان العرب القدامى، ويتجلّى هذا التّشابه خاصّة مع أسلوب الكهّان في بعض المواطن التي يذكر فيها القرآن القسم بالليل أو بالأوقات والظواهر الفلكيّة الأخرى، ما يفضي إلى القول بأنّ القرآن قد راهن على استعمال وسائل تعبيريّة كانت متداولة منذ أمد بعيد.

وفيما يتّصل باتهام بارت لمحمّد بتمثّله للتصوّر الكهنيّ حول الرسالة المحمّديّة، فقد ذهب إلى القول بأنّ محمّدًا قد اتّبع أسلوب الكهنة في تبليغ رسالته، «بل ربّما فكّر أن يكون كاهنًا من

١. م. ن، ٧٩.

نوع ما»[١]، وذلك لأنّ الكاهن بمستطاعه أن يعرض جملة من المعارف المتعالية عن الواقع اليوميّ المعيش، والمتجاوزة حتّى لإدراكات الحواس المحدودة، هذا فضلًا عن تنصيب الكاهن لنفسه على أنّه أداة لذات أعلى منه، أي الذات الإلهيّة، التي يتحدّث باسمها لا بدوافع شخصيّة، وهذا ما تبيّنه من خلال مساءلته للعديد من الآيات القرآنيّة وبعض الروايات العربيّة الأخرى شأن الرواية الموقوفة عند ابن سعد عن عروة ابن الزبير، والتي مفادها أنّ النبيّ محمّدﷺ كان يقول لزوجته أنّه يرى نورًا ويسمع صوتًا ويخشى أن يكون كاهنًا. وهو تصوّر كريه بالنسبة للرسول محمّد؛ لأنّ رغبته الجامحة في إعلان دعوته كانت ترنو إلى ما هو أعلى وأسمى من خلال دعوته المستمرّة لمعرفة الله الواحد الأحد والإيمان به على أن لا يكون مجرّد كاهن أو راءٍ أو ساحر. لقد نظر بارت إلى السيرة المطهّرة والسنّة المشرفة بعين الارتياب والشكّ، وهو ما يتجلّى من خلال شكّه المستمرّ في صحّة نبوّته والوحي الذي أنزل عليه.

اعتبر بارت أنّ محمّدًا لم يصل إلى أفق الوحدانيّة وحده، أي إنّه لم يكن حنيفًا من الحنفاء، الذين توصّلوا إلى أعلى مراتب الإيمان بالوجود الإلهيّ دون أن يعتنقوا اليهوديّة أو المسيحيّة«على أنّ الأعجب من ذلك، وهذه واقعة تاريخيّة أيضًا، أنّ محمّدًا ما اكتفى بأن يصل بنفسه إلى أفق الوحدانيّة. وبالتعبير العربيّ، فإنّ محمّدًا لم يصبح حنيفًا، أي إنّه لم ينضم إلى تلك الزمرة من العرب (الحنفاء) الذين توصّلوا إلى إيمان أعلى بالوجود الإلهيّ دون أن يعتنقوا اليهوديّة أو المسيحيّة، كما يذكر عنهم المؤرّخون العرب»[٢].

يبدو أنّ تعاطفه الكبير مع الإسلام هو ما جعله ينتهج نهج الموضوعيّة العلميّة في ترجمته لمعاني القرآن ومحاولة تفسيره لها، وهذا ما بدا جليًّا في بحثه عن ظهور الإسلام والرسالة المحمّديّة، وكيف نزل الوحي على محمّد؛ لذلك أطنب في تفسير الوحي بأساليب علميّة قريبة من الواقع المعيش لا الواقع الغيبيّ.

ففي تناوله لمسألة الوحي القرآنيّ، اعتبر بارت أنّ الوحي الذي خاطب به محمّد الوثنيّين

١. م. ن، ٨٧.

٢. م. ن، ٧٤.

المكّيّين كان مجرّد خدعة؛ لأنهم يعتبرون أنّ الوحي الإلهيّ الذي كان يتلوه عليهم كان يستمدّه من مصادر ورواة غير إلهيّة « كانت تسويغات النبيّ، كما تبدو على لسانه في الآيات القرآنيّة التي أثبتناها، غير مقنعة لخصومه ومجادليه»[1]. أمّا فيما يتّصل بمحجاجة محمّد للقريشيّين تقرّ بأنّ دعوى النقل غير صحيحة؛ لأنّ الرجل الذي يزعمون أنّه يعلّم النبيّ ليس عربيًّا، واللغة العربيّة ليست لغته الأمّ، والحال أنّ القرآن ورد بلسان عربيّ مبين.

لقد أرجع بارت نزول القرآن على النبيّ محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام إلى تأثّره بالديانات الكبرى، أي اليهوديّة والمسيحيّة، أي إنّه نحت منها الكثير، ويتجلّى ذلك خاصّة من خلال ما أورده من قصص الأنبياء في العهد القديم، مثل قصص نوح ولوط وإبراهيم وموسى، وضمّها إلى مخزونه الدينيّ، ونسي أنّ النبيّ محمّد لم ينحت من أيّ ديانة كانت، وإنّما ذلك كان وحيًا من الله الخالق، فمحمّد هو خاتم الأنبياء والرسل.

وفي إرجاعه مفهوم الوحي لمبحث الإلهام، ينزل بارت قيمة النبيّ الكريم محمّد ليجعل منها تتساوى وقيمة الفنّانيّن؛ لأنّه يرى بأنّ الوحي هو إلهام لكلّ فنان مبدع يؤمن بأنّه يتلّقى إلهامًا حينما يستطيع التعبير عن الإحساس الذي يخالجه، كذا هو الحال مع العالم الذي يستطيع إنجاز بعض العمليّات الفكريّة المعقّدة التي فكّر في شأنها طويلًا. وهنا ينزل بارت من شأن النبيّ محمّد ليجعل منه يتساوى والناس الذين أتاهم برسالة من الخالق، وبناءً على ذلك يكون محمّد قد خرج من وضع الإلهام والوحي ليتساوى مع البشر، والحال أنّه منزّه عن هذه المساواة.

وعلى الرغم من الأهمّيّة التي أولاها بارت في كتاباته للقرآن وللنبيّ محمّدﷺ، وكيف ساهم في التعريف بها لدى الغرب من خلال ترجمته لمعاني القرآن، والتي تعدّ الأفضل من بين العديد من الترجمات، إلّا أنّه أعلن عدّة مرّات برفضه القول بأنّ الرسالة المحمّديّة ليست بالرسالة السماويّة، وإنّما هي من تأليف الرسول محمّد عليه الصلاة والسلام، ما يعني بحسب قوله أنّ محمّدًا هو من ألّف القرآن، ولم يكن قد نزل عليه من الله على شاكلة وحي، وهذا يعدّ ضربًا من المغالطة والتضليل عن الحقّ.

---

١. م. ن، ١٠٣.

وفيما يتّصل بمسألة الوحدانيّة، أي القول بالإله الواحد الأحد، فقد شكّك بارت في هذه الوحدانيّة مستندًا في ذلك إلى العديد من الأدلّة الواردة في النصّ القرآنيّ كشأن مفردة ربّ الناس أو الربّ أو ربّ البيت، ما يعني أنّ فكرة وحدانيّة الله قائمة بذاتها، إلّا أنّها تخصّ محمّدًا وأتباعه، ولا تخصّ خصومه وأعداءه الذين يسمّيهم محمّد بالكافرين.

ما نخلص إليه بالقول هو أنّ بارت اعتبر أنّ البحث في مسألة الوحي يتطلّب ضرورة العودة إلى البحث في البيئة والمحيط الذي نشأ فيه الرسول الكريم، والبحث في أهمّ الدوافع الكامنة خلف ظهور القرآن الكريم؛ لأنّ مسألة الوحي لا يمكن الاستدلال عليها علميًّا، وإنّما يجب البحث في بعض الدوافع الخفيّة الكامنة خلفها. ففيم تمثّلت إذًا أهمّ المؤثّرات الكامنة خلف ظهور القرآن بنظر بارت؟

٤. القصص القرآنيّ وعلاقته بالنبيّ محمّد ﷺ

يعني مفهوم القصّ في اللغة العربيّة الخبر وتتبّع الأثر ماديًّا ومعنويًّا، القصّ: تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره، والقصّ، الأثر»[1]، وقد ذكر هذا المفهوم أيضًا في القرآن الكريم عدّة مرّات، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣)، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ (الكهف: ١٣).

وثمّة فرق جليّ في اللغة العربيّة بين مفهومي القَصص بالفتحة والقِصص بالكسرة، حيث يعني الأوّل الإخبار عن الحادثة أو القصّة التي يرويها القاصّ، وتعني الثانية كتابة القصص وروايتها. كما أنّ مفهوم القصص الذي ورد في القرآن الكريم ينقسم إلى ثلاثة أقسام، حيث يتعلّق الأوّل بقصص الأنبياء السابقين للنبيّ محمّد ﷺ كقصّة سيّدنا آدم ونوح عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء الآخرين الذين وقع ذكرهم في القرآن الكريم. وأمّا النوع الثاني من القصص القرآنيّ فيتّصل ببعض الحوادث الغابرة لغير الأنبياء كقصّة هاروت وماروت وأصحاب السبت. ويتعلّق النوع الثالث من القصص القرآنيّ بالوقائع والأحداث التي وقعت في عهد الرسول الكريم محمّد ﷺ كغزوة بدر وأحد وقصّة زواجه من زينب بنت جحش.

---

١. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب، ٦٧١.

وبالعودة إلى أنواع القصص القرآنيّ، نجد أنّ معظم كتّاب السيرة اعتمدوا على النوع الثالث من القصص القرآنيّ، أي تلك التي وقعت في حياة الرسول محمّد بالاعتماد على الوقائع التي ذُكرت في القرآن الكريم، شأن قصّة معركة بدر التي كتب عنها العديد من كتّاب السيرة قديمًا وحديثًا دون أن يتخلّوا عن المصدر الأصليّ المتمثّل في كتاب الله، ومن أهمّ الكتّاب القدماء نذكر ابن هشام في كتابه السيرة النبويّة[١]، والبيهقيّ في كتابه دلائل النبوّة[٢]. وأمّا الكتاب المعاصرون فنذكر مصطفى السباعيّ في كتابه السيرة النبويّة دروس وعبر[٣]، وأيضًا الغزالي في كتابه فقه السيرة[٤]، وما ميّز كتابات هؤلاء جميعًا هو أنّهم كانوا دائمًا يستشهدون ببعض الآيات القرآنيّة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٣).

لقد مثّلت القصص التي وقعت في عهد الرسول محمّدﷺ محلّ اهتمام كبير، خاصّة لدى كتّاب السيرة، ولعلّ كلّ ذاك الاهتمام كان لأجل تفسير وتقديم أفضل الخدمات للسيرة النبويّة من خلال تلك القصص والوقائع التي لم يستغنوا في إيصالها عن القرآن الكريم دون غيره من الكتب والأحداث الأخرى، وذلك لأنّه يعدّ المرجع الأصليّ للقصص الذي دوّنه كتّاب السيرة على وجه الخصوص. ولا ريب من القول بأنّ القرآن الكريم يظلّ أفضل وأصدق الكتب التي احتوت على حياة الرسول محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وعلى خلاف ما ذهب إليه كتّاب السيرة، فقد ذهب رودي مذهبًا آخر موازيًا لهؤلاء، حيث عاد هو الآخر إلى قصص القرآن لأجل كتابة السيرة النبويّة، ولكن بأسلوب مغاير للمنهج الذي دأب عليه كتّاب السيرة النبويّة. فمثلًا في تناوله لتجربة الرسول الكريم محمّدﷺ فقد اعتبرها مجرّد امتداد لحياة الرسل السابقين له، وحتّى قومه مع أقوامهم وأنصاره مع أنصارهم من خلال قوله: «فإنّ تلك الشخصيّات في تاريخ النبوّة والخلاص اتّخذت معالم شخصيّة النبيّ نفسه. كما

١. ابن هشام، السيرة النبويّة، ٢: ١٠٦.

٢. البيهقي، دلائل النبوّة، ٣: ١٢٧.

٣. السباعي، السيرة النبويّة دروس وعبر، ٨٢.

٤. الغزالي، فقه السيرة، ٢٣٧.

أنّ خصوم تلك الشـخصيّات صاروا مثل الشخصيّات المكّيّة الوثنيّة المعادية له ولدعوته. وقد سرت هذه العمليّة حتّى على تصوّرات أولئك الاعتقاديّة»[١].

وقد كان بارت وثوقيّ التوجّه، حيث أنّه متمسّـك بما يقوله حول النبيّ محمّد، وكيف ربط قصص بعض الأنبياء السابقين له بقصّة حياة النبيّ محمّدﷺ، واعتبر أنّ قصص الأنبياء مشابهة لقصّة محمّد، حتّى إنّه عمد في بعض المواقف إلى اسـتبدال اسـم نبيّ سـابق باسـم النبيّ محمّد «يطلب هؤلاء من نوح (محمّد) أن يطردهم من صحبته»[٢].

تفيـد القصص التي وردت حول منزلـة النبيّ محمّد في نظر مشركي مكّة في كتب السـيرة بـأنّ هذه النظرة اختلفت من مرحلة لأخرى، حيث حظي بالاحترام والتقدير ولقّب بالصادق الأمين في المرحلة السابقة للبعثة، لكنّ الأمر تغيّر فيما بعد البعثة، وعارضه كبار المشركين وقاموا بمعاداتـه ومعارضته «يا معشر قريش، إنّـه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمّد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتّى إذا رأيتم في صدغيه الشـيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهـم وعقدهم، وقلتم كاهن، لا والله مـا هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسـمعنا سـجعهم، وقلتم شـاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسـمعنا أصنافه كلّها: هزجه ورجـزه، وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه، ولا وسوسـته، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنّه والله لقد نزل بكم أمر عظيم»[٣].

ورغم أنّ القصص التي أوردتها كتب السيرة تكلّمت على النبيّ محمّد، إلّا أنّ بارت أصرّ على مماثلة حياة النبيّ محمّد بحياة الرسـل السابقين له؛ إذ نجده دائم العودة إلى قصص السابقين في القرآن الكريم؛ وذلك لأجل المقارنة والمقاربة بين النبيّ محمّد وسابقيه من الرسل، حيث ذهب في حديثـه عن نظـرة التبجيل التي نظر بها أهل مكّة إلى النبيّ الكريـم محمّد قبل البعثة، وكيف

١. بارت، محمّد والقرآن، دعوة النبيّ العربيّ ورسالته، ١٦٠.

٢. م. ن، ١٧٢.

٣. ابن اسحاق، السير والمغازي، ٢٠٠.

تعجّبوا من أمره حينما دعاهم إلى عبادة الله الواحد ونبذ الأصنام، مستشهدًا في ذلك بقصّة سيّدنا صالــح وقومه في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود: ٦٢)[١].

يبدو أنّ بارت قد اتّخذ من القصص القرآنيّ الذي هو مصدر للســيرة النبويّة مرجعه لأجل البرهنة في إثبات ادّعائه بأنّ ما وقع للرسول الكريم من وقائع وأحداث مع أهل قريش قد وقع لغيره من الأنبياء، ما يعني أنّ حياته كانت مماثلة لحياتهم حســب تصوّره، والحال أنّه كان مختلفًا عنهــم في العديد من المرّات «لقد عصم الله النبيّ (صلّى الله عليه وســلّم)، ونصره، وفتح عليه الجزيرة العربيّة، ولا سيّما مكّة عاصمة قريش ألدّ أعدائه، وبهذا أظهر الله دينه على الدين كلّه»[٢].

٥. التشكيك في صحّة القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كلام الله الواحد الأحد الذي يختلف عن كلام البشر، أنزله الله على النبيّ محمّدﷺ، وهو المكتوب في المصاحف والمتضمّن لجميع معاني الكلام الدالّة على ما في النفس من مدلولات متعدّدة «القرآن هو الكتاب المنزل على رسوله محمّد ﷺ، والمدوّن بين دفتي المصحف، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس»[٣].

ومن أهمّ خصائصه إخبارنا بالغيب وببعض الأمور المستقبليّة التي ما نزال نجهل حدوثها، هذا فضلًا عن إخبارنا بحدوث بعض العلوم والمعارف التي بلغتها الإنسانيّة إلى الآن، والأخرى التي ما زالت طيَّ الكتمان. ومن أهمّ خصائص كلام الله أنّه نزل على طورين، الأوّل في المدينة، والثاني بمكّة، ويمتاز قرآن كلّ مرحلة بجملة من الخصائص الفنيّة واللفظيّة والعلميّة.

وأوّل من تناول علوم القرآن بالدراسة والكتابة، فلم يتمّ تحديده بالتدقيق، ولكن يُشاع أنّ من بين الكتّاب القدماء من تناول هذه المســألة، شــأن عليّ بن المدينيّ في كتابه عنوان القول في أسباب النزول، والقاسم بن سلام وجاء كتابه تحت عنوان: الناسخ والمنسوخ.

---

١. بارت، محمّد والقرآن، دعوة النبيّ العربيّ ورسالته، ١٦١.

٢. زين العابدين، دراسات في السيرة النبويّة، ١٦٣.

٣. شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ٣٩٩.

إنّه لمن نافل القول الإشـارة إلى أنّ النصّ القـرآنيّ يمثّل الخطاب الذي توجّه به الله الواحد الأحد إلى الناس أجمعين، لكي يقرأوه ويتدبّروا شؤونهم وفقًا لتعليماته، خاصّة وأنّه نزل بلسان عـربيّ مبين ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٣). لكنّ المتأمّل لقراءات بعض المستشرقين حوله يجد العديد من التجاوزات التي تحطّ من قيمته وتجعله يتساوى مع باقي الكتابات البشريّة من حيث القيمة والمعنى، وهذا ما نلحظ صداه في كتابات بارت.

اهتـمّ بارت كباقي المسـتشرقين الغربيّين بترجمة القرآن الكريم من اللغـة العربيّة إلى اللغة الألمانيّـة، كما هو معلوم، ضمن مجلّد خاصّ، وقد حظيت هذه الترجمة بإعجاب وإقبال كبيرين من قبل علماء الغرب والمسلمين، الذين انتقدوا هذه الترجمة في عدّة محطّات لاحتوائها على جملة من الأخطاء والأفكار المجانبة للصواب.

حيث إنّ بارت يرى أنّ النصّ القرآنيّ هو نصّ قابل للدراسـة والتحليل على ضوء المناهج النقديّة، شأنه شأن باقي الوثائق التاريخيّة القابلة للقراءات المتعدّدة والمختلفة، وذلك من خلال مراهنتـه على اتّباع منهجيّة النقد الداخليّ له، وذلك مـن أجل الوصول إلى نقد تاريخيّ للآيات والتطوّر الفكريّ للرسول محمّد الذي اعتبر أنّ تطوّره الفكريّ يظلّ رهين نزول الآيات.

تعـدّ ترجمة بارت للقرآن مـن أهمّ الترجمات الحديثـة التي نقلت النصّ القـرآنيّ إلى اللغة الألمانيّة، والتي جاءت على إثر اطّلاعه العميق والواسع على تفاسير كلّ من الزمخشريّ والطبريّ والبيضاويّ، والتي حاول ضمنها، كما ذهب إلى ذلك أغلب المترجمين، إضافة بعض التعبيرات والمعاني لربط سياق الكلام بما يلزم من إضافات.

ولا يسـعنا في هذا السـياق إلّا القول بأنّه رغم المسـاعي التي قدّمها المستشرقون من شتّى أصقاع العالم للقرآن الكريم، إلّا أنّ هذه الترجمات لن تكون وافية وجامعة للقرآن الكريم؛ لأنّ الإحاطة الكاملة بشـتّى معاني القرآن تتطلّب الإلمام الكامـل بمعانيه الأوليّة والثانويّة، خاصّة وأنّ العديد من مترجمي القرآن لا يتقنون اللغة العربيّة إتّقانًا جيّدًا، وهذا ما نجد صداه في ترجمة بارت «لو اطّلعنا على منهجه في هذه الترجمة لرأيناه يسـلك هو الآخر سـبيل زملائه في إضافة تعبيرات ومعان معيّنة لربط سـياق الكلام كما قال. وهو منهج سلكه أغلب المترجمين، وقد بيّنّا

لــك عيوبه... ويحاول بارت تبرير هذه الترجمة المحرفــة في قوله إنّ طريقة تعبير القرآن كثيرًا ما تكــون مقتضبة، وأحيانًا ترد في ســياق الحديث فكرة في تلميح خاطــف أو تبقى بدون تلميح، وعلى القارئ أن يجتهد في ربط ســياق الحديث بما يلزم من إضافات... وقد أدخلت في ترجمتي إضافات معيّنة من هنا وهناك لربط سياق الكلام»[1].

لقد نظر بارت إلى الآيات والســور القرآنيّــة نظرة تاريخيّة، وأنزلها منزلــة الوثائق البشريّة الخاضعــة للترتيب التاريخيّ والتطوّر الفكريّ للبشر، والحال أنّها صادرة عن الله الخالق للكون وما عليه، والحال أنّه لا يجب أن نقارنها بما دونه البشر من وثائق محدودة الأفكار بحكم صدورها عن بشر محدودي الفكر والإرادة بقدرة الخالق الجبّار للبشر والكون معًا.

كما اعتــبر أنّ للبيئة التي وجد بها محمّدﷺ دورًا مهمًّا في التأثير على الســور القرآنيّة، وذلك من خــلال مقارنته بين القرآن الذي نزل على النبيّ في مكّة ونظيره في المدينة، والذي أرجعه إلى الوضع النفسيّ والاجتماعيّ للنبيّ، ومن ذلك سعى إلى تقديم تفسير علميّ للقرآن لا غيبيّ.

ضمــن طرحه لبعض القضايا المتّصلة بالنصّ القرآنيّ، فقد شــكّك بارت في بعض الحقائق التــي جاء بها منذ نزل على النبيّ محمّدﷺ، ففي حديثه عن الحســاب ويــوم القيامة، فقد اعتبر بارت أنّ الحديث عن هذا اليوم يعدّ ضربًا من التخويف والترهيب لجمع أنصار حول الرسول، ولأجل الإيمان بالدعوة المحمّديّة دون محض إرادة، أي إرغامًا وعنوة.

فما تجدر الإشارة إليه أيضًا أنّ بارت لم يقف عند حدود الافتراءات التي وجّهها للنبيّ محمّد، وإنّما تعدّاها لاعتبار أنّ القرآن ليس منزلًا من الســماء، وإنّما هو نســخة من التوراة والإنجيل، وذلــك يعود لما اســتخلصه من القصص غير المجزّأة التي وجــدت في التوراة والإنجيل، وهو اتّهام باطل وغير موضوعيّ.

ثالثًا: قراءة في أهمّ المزالق العقديّة لبارت

أصدر بارت المجلّد الأوّل الذي ضمّنه ترجمته لمعاني القرآن إلى اللغة الألمانيّة سنة ١٩٦٢م،

١. الحاج، الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها على الدراسات الإسلاميّة، ٣١٢.

ثمّ أرفقه بمجلّد ثان سنة ١٩٧١م، والذي اعتبره بمثابة الملحق للترجمة الأولى، حاول ضمنه وضع تدارك بعض الصعوبات العصيّة عن الفهم من خلال إضافته لبعض التعليقات التي تتّصل بعدم فهم بعض الآيات القرآنيّة، وفي المجلّد الثاني وضع تعليقات على المواضيع المشكلة في فهم بعض الآيات في كلّ سورة. وذكر خلاصة الأبحاث التي جرت حول المشكلة، خصوصًا أبحاث المستشرقين، وبذلك زوّدنا بإشارات إلى الدراسات العديدة التي تناولت هذه المشكلة أو تلك ممّا يثيره نصّ القرآن، (...) وبهذا صار هذا المجلّد الثاني أداة بيبلوغرافيّة نافعة جدًّا للباحثين»[1].

إنّ المتأمّل لترجمة بارت للقرآن الكريم ومجموع الكتابات التي دوّنها حوله وحول شخص النبيّ الكريم محمّدﷺ يجد العديد من المزالق التي أبعدته عن النهج السليم للتعريف بهذا المبحث الإسلاميّ المهمّ الذي من شأنه أن يساعد من لا يتقن اللغة العربيّة على فهم وتمعّن معاني القرآن الكريم ورسالة النبيّ محمّد في الحياة، وهي مزالق لا يمكن الجزم بشأنها على أنّها تحريف، وخاصّة إذا ما اتّصلت المسألة بتفسير القرآن وتأويله.

ومن الطبيعيّ أن نجد بعض الأخطاء، سواء أكان في الترجمة أو في التفسير والتأويل، خاصّة لدى المترجمين المستشرقين، ويبدو أنّ بارت غير منزّه عن مثل هذه المزالق، وهذا ما نلحظ صداه خاصّة في بعض ترجماته لبعض الآيات القرآنيّة من حيث ترجمتها والمنهج والأسلوب اللغوي الذي اتّبعه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ اهتمام بارت الواسع بالدراسات الإسلاميّة وترجمته للقرآن الكريم على وجه الخصوص هو ما جلب له العديد من القرّاء والنقّاد من العلماء المسلمين على حدّ سواء، حتّى أنّ بعضهم قد أفرد له دراسات خاصّة تلمّ بأفكاره وترجماته القرآنيّة، شأن الباحث الإيرانيّ مسعود منصوري، والباحث الليبيّ ساسي سالم الحاج.

تبدو ترجمة بارت بحسب رؤية الباحث مسعود منصوري متقاربة التراكيب اللغويّة والنحويّة من حيث الأمانة للنصّ الأصليّ؛ وذلك لأنّه اتّبع المنهج الذي يتناول الآيات القرآنيّة

١. بدوي، موسوعة المستشرقين، ٦٢.

مــن حيث المضمون بدرجة أولى، ثمّ يقــارن بينها، ثمّ يقدّم صياغة نهائيّة لها مثلما جاء في ترجمته لســورة التوبة ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ (التوبة: ٥٥). «فقد وردت في الترجمة الألمانيّة بنفس الصيغة كلّما وقع تكرارها في المواضيع المختلفة:

Du brauchst ihr Vermogen und hire Kinder nicht zu bestaunen. Gott will sie im diesseitingen leben damit bestrafen1.

ورغم ما قدّمه من إضافة وتجديد على ترجمة النصّ القرآنيّ، وهو ما جعله يمتاز عن أسلافه ممّن ترجموا النصّ القرآنيّ، خاصّة إلى اللغة الألمانيّة حسب ما ذهب إليه بعض النقّاد والدارسين، إلّا أنّــه وقــع في العديد من الأخطاء والمزالــق اللغويّة، وهذا دليل على قصــور العقل البشريّ وعجــزه أمــام الله الخالق، ما يعنــي أنّ النصّ القــرآنيّ قد بلغ أقصى المراحل مــن حيث المعاني التركيبيّة والدلاليّة، وأنّه يظلّ دائمًا متعدّيًا على طاقة البشر المحدودة.

وتصديقًــا لهذه القناعة، فإنّ الحديث عن مواطن الضعف التي تخلّلت ترجمة بارت الألمانيّة لمعاني القرآن، والتي تتجلّى من خلال إضافته لبعض الجمل التوضيحيّة للترجمة أو ترجمته لبعض الآيات مرّتين، خاصّة حينما يعجز عــن ترجيح إحدى الترجمات عن الأخرى، فيكتفي بوضع نقاط اســتفهام، وهذا ما يبرهن على ضعف الإنســان أمام كلام الله. وهذا ما أكّده بارت بنفسه حينما اعترف بأنّه«اضطر إلى إضافة جمل توضيحيّة إلى ترجمته لمعاني القرآن»[٢].

فــما يعاب على بــارت أيضًا هو أنّــه أثقل النصّ القــرآنيّ المترجم بجملــة من الشروحات والتعليقــات التي تســهّل على القــارئ المتخصّص فهمهــا، في حين يكون العكــس تمامًا لغير المتخصّــص، هــذا فضلًا عن إخراجــه للنصّ في بعض الأحيان على شــاكلة النــصّ الغريب، خاصّــة حينما يضع علامات الاســتفهام الدالّــة على صعوبة فهمه للنصّ القــرآنيّ والأقواس، ومحاولته ترجمة بعض المفردات حرفيًّا، والحال أنّ الترجمة أريد بها التفسير والإيضاح لا التعقيد

١. قطاط، ترجمة رودي بارت لمعاني القرآن: دراسة تقويميّة، ١٢٧.

Paret, Der Einbruch der Araber in Die Mittelmeerwelt. Rudi. Kevelaer.

2. Paret, Vorwort zu Der Koran, 7.

نقلًا عن مسعود، تأملی در برخي از نقاط قوت وضعف ترجمة رودي بارت، ٦٦.

والغمــوض، باعتبار أنّ الترجمة الحقّ هي تلك التــي تحذو حذوّ النصّ الأصليّ من حيث النبرة وتسلسل الأفكار، ولنا في ذلك العديد من الأمثلة الدالّة على ذلك مثل ترجمته لكلمة الإخلاص بالإيمان، وهو ما يتجلّى من خلال ترجمته لصورة الإخلاص التي ترجمها كالآتي:

Im Namen des barmherzigen und gnadigen Gotte.

1 Sag: er ist Gott, ein Einziger, Gott, durch und durch (er selbst) (?) (w. der Kompakte) (oder: der Nothelfer (?) w. der, an den man sich (mit seinen Noten und Sorgen) wendet, genauer: den man angeht ?). 3 Er hat weder gezeugt, noch ist er gezeugt werden. 4 Und keiner ist ihm ebenburting. (Ubersetzung nach Part)[1]

وتعني هذه الترجمة «قل هو الله، الواحد، الله، القائم بذاته (من خلال نفســه) (؟) (حرفيًّا: المتماســك) (أو النصير في الشــدائد (؟)، حرفيًّــا: الذي يتّجه إليه المرء (في شــدائده وهمومه)، وبمعنى أدقّ الذي يقصده المرء؟). لم يلد ولم يولد، وليس أحد ندًا له»[٢].

ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ بارت ترجم القرآن الكريم ترجمة حرفيّة تخلّى من خلالها عن الجانب الدلاليّ والجماليّ لمعاني العبارات القرآنيّة، وهذا ما جلب إليه العديد من النقّاد سواء من الشرق أو من الغرب «إنّ ترجمة باريت، وبالذات في دقّتها المثيرة للنقد، ليســت سيّئة فحسب، وإنّــما هي خاطئة، إذ إنّهــا تعطي فكرة خاطئة عن القرآن، إنّها لا تقــدّم لقارئها بأيّ حال نفس المضمون، الذي تحتويه الآيات في نصّها الأصليّ...»[٣].

ورغم إقرار الباحث ســاسي ســالم الحاج بأنّ ترجمة بارت لمعاني القــرآن تعدّ أفضل ترجمة مقارنة بســابقاتها من الترجمات الألمانيّة خاصّة، إلّا أنّه سرعان ما اســتدرك واتّجه نحو الكشف عن النوايا الخفيّة الكامنة خلف هذه الترجمة، والمتمثّلة أساسًــا في نيّة الإســاءة للقرآن وتحريف معانيه، حيث قال: «ويحاول بارت تبرير هذه الترجمة المحرّفة في قوله إنّ طريقة تعبير القرآن كثيرًا ما تكون مقتضبة، وأحيانًا ترد في ســياق الحديث فكرة في تلميح خاطف أو تبقى بدون تلميح،

1. Paret, Der Einbruch der Araber in die Mittelmeerwelt.

٢. رشيدي، مناهج المستشرقين الألمان في ترجمات القرآن الكريم في ضوء نظريّات الترجمة الحديثة: دراسة لنماذج مختارة، ١٤.

٣. كرماني، حول إمكانيّة ترجمة القرآن، ٥.

وعلى القارئ أن يجتهد في ربط سياق الحديث بما يلزم من إضافات»[١].

ما تجدر الإشارة إليه أيضًا هو أنّ بارت لم يسلم هو الآخر في الوقوع في الخلط والخطأ أحيانًا حينما تناول العديد من القضايا العقديّة شأن مسألة الجبر والاختيار، وهو من أعقد المسائل التي يقع فيها العديد من المفكّرين حتّى المسلمين منهم، ويتجلّى الخلط الذي وقع فيه المترجم من خلال ترجمته للآية القائلة ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (الحديد: ٢٥).

Auch Gott wollte (…) feststellen (w., wissen) wei ihm und seinen Gesandten im geheimen hilft.

وتعني هذه الترجمة أنّ علم الله محدود ولا يعي من ينصره ممّن يعاديه.

تبدو إذًا ترجمة بارت لمعاني القرآن كسابقتها، باعتبارها قد وقعت هي الأخرى في التحريف والمغالطة وسوء الفهم أحيانًا، خاصّة حينما يتعلّق الأمر بترجمة الآيات التي تحيل على الزمن شأن ترجمته للآية ١٨٧ من سورة البقرة القائلة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ والتي هي كناية عن الوقت الذي ينقطع فيه المسلم عن الأكل والشرب، والتي ترجمها بارت حرفيًّا بقوله كلوا واشربوا إلى أن تتمكّنوا من تمييز الخيط الأبيض عن الخيط الأسود بطلوع الفجر.

وممّا لاشكّ فيه، فإنّ جلّ المزالق التي وقع فيها بارت أثناء ترجمته لمعاني القرآن هي لا محالة دليل على ضعف الكائن البشريّ أمام الله خالقه، وأنّه مهما تاق إلى بلوغ الكمال يظلّ دائمًا كائن النسبيّة والمحدوديّة، ومن غير الممكن القول ببلوغ المطلق والإتقان الكامل الذي لا يشوبه النقصان، هذا فضلًا عن التشوّهات التي أراد إلحاقها بالدين الإسلاميّ، فإنّ كمال هذا الدين الذي أنزله الله للبشريّة يظلّ دائمًا صامدًا أمام هذه الافتراءات وداحضًا لها في آن كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢).

لقد سعى بارت من خلال ترجماته وكتاباته حول الدين الإسلاميّ إلى الإلمام الكلّيّ بهذا الدين، ولعلّ ترجماته خير شاهد على ذلك، إلّا أنّه وقع في العديد من المزالق والأخطاء اللغويّة

١. الحاج، الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها على الدراسات الإسلاميّة، ٣١٢.

التي جعلت العديد من المفكّرين يتّهمونه بالتّشويه والإساءة للدين الإسلاميّ، خاصّة حينما تتعلّق المسألة بالإساءة إلى كلام الله أو الرسول محمّدﷺ، وخاصّة فيما يتّصل ببعض التفسيرات العلميّة التي انتهجها، وتجاوز بذلك القول بالإرادة والفعل الإلهيّ لأجل إنصاف الفعل البشريّ المتمثّل في القول بالعلم.

رابعًا: في التفكير مع بارت ضدّ بارت

لا شكّ أنّ المتأمّل لأفكار بارت يجد العديد من الفوائد التي أشادت بالثقافة العربيّة الإسلاميّة وساهمت في نشرها والتعريف بها لدى الغرب، خاصّة الترجمات، وهو ما من شأنه أن يحدّد مكانة الفكر الإسلاميّ وقيمه العظيمة في إطار الفكر العالميّ، هذا فضلًا عن التعريف بأهمّيّة القرآن الكريم باعتباره يمثّل أهمّ كتاب لدى المسلمين، أي كتاب العربيّة الأكبر، والذي بناء على التعاليم والنصوص التي أتى بها تمّ بناء الحضارة الإسلاميّة، وهو ما ساهم في نشر قيم وتعاليم الدين الإسلاميّ العظيمة في إطار الفكر العالميّ.

لا شكّ أنّ اهتمام بارت بالحضارة العربيّة الإسلاميّة وبدينها الإسلاميّ لم يتأتَ من فراغ قيميّ وأخلاقيّ، وإنّما مردّه إلى أهمّيّة وسعة ثقافة هذه الحضارة التي جلبت إليها الأنظار، وذلك لما تزخر به من ينابيع معرفيّة وفكريّة جعلت الاهتمام بها يخدم البشريّة جمعاء؛ لذلك راهن بارت كغيره من المستشرقين إلى الإلمام بها والتعريف بأهمّ الكتب التي تميّزت بها، شأن القرآن الكريم وكتب السيرة، إلّا أنّه وقع في بعض المزالق والأخطاء التي جلبت إليه العديد من النقّاد الذين اتهموه في بعض الأحيان بتشويه الدين الإسلاميّ والقصد في الإساءة إليه رغم أنّ بعضهم أنصفه.

ومن أبرز الأخطاء التي وقع فيها المستشرق بارت هو الأسلوب الذي تناول به مسألة تعدّد زوجات النبيّ الكريم محمّد، والصورة التي أخرج عليها هذه المسألة، حيث أرجع ذلك إلى المكانة التي عليها الرسول الكريم ومدى استغلاله لها، والحال أنّ النبيّ الكريم قد عاش في مجتمع كان تعدّد الزوجات فيه أمرًا عاديًّا جدًّا «دأب الغربيّون ومنذ القديم وعبر مئات السنين

وإلى الزمـن الحاضر، على النعي على النبيّ محمّد أنّـه في حين اكتفى في مكّة بزوجة واحدة، قبل الهجـرة، أقبل بعد الهجرة عـلى تعدّد الزوجات، حتّى بلغ مجموعهـن ثلاث عشر امرأة. وعلى الخصوص فإنّ المآخذ عليه تتركّز في اثنتين؛ الأولى أنّه عمد للزواج من زينب، زوجة متبنّيه زيد بن حارثة، والتي يبدو أنّه طلقها عندما علم أنّ النبيّ يريدها. والثانية أنّه تجاوز في عدد زوجاته ما يحقّ للمسـلم أن يتزوّج به من النسـاء، معطيًا بذلك نفسه امتيازات خاصّة، سوّغها له أيضًا القرآن»[1].

ففـي قوله أنّ القرآن الكريم سـوّغ للنبيّ الكريم محمّد امتيازات خاصّة للزواج من نسـاء المسـلمين، فيه افتراء على النصّ القرآنيّ من جهة، وعلى النبيّ الأكرم من جهة ثانية؛ وذلك لأنّ الحكمة الكامنة خلف تعدّد الزوجات لم تكن استغلال المكانة والجاه أو النصّ القرآنيّ كما ادّعى بـارت، وإنّما جاءت من أجل رعاية أولئك النسـوة اللواتي فقـدن أزواجهنّ في الحروب، هذا فضلًا عن أنّه ثمّة من تزوّجهنّ لأسباب سياسيّة.

وأمّـا فيما يتّصـل بزواجه من زينب زوجة ابن حارثة الذي تبنّـاه قبل النبوّة، فقد جاء قرار الطلاق بينهما بناء على رغبة زوجها في ذلك، الذي كان يشـتكي للنبي محمّد شـدّة لسانها عليه، ورغـم أنّ النبيّ أمـره أن لا يطلّقها، إلّا أنّه طلقها وتزوّجها النبـيّ الكريم؛ لأنّه كان يعلم عن طريـق الوحي من أنّه سـيتزوّجها، ولعلّ الحكمة الإلهيّة الكامنة خلـف هذا الزواج هي إباحة أزواج المتبنّـين بعد إبطال التبنّي، لا توظيف القرآن لأجل تحقيـق أهداف ومآرب خاصّة، كما ذهب إلى ذلك بارت باستشـهاده بقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا**﴾ (الأحزاب: ٣٧).

لا شـكَّ أنّ هذه الاتّهامات والادّعاءات الباطلة التي وجّهها بارت لشخص النبيّ الكريم محمّـد قد تحيلنـا إلى التفكير في مثل هذه الأباطيـل مرارًا وتكرارًا، خاصّة حينـما تأتينا من عالم ومترجم وازن مثله ليكون التسـاؤل هنا مشروعًا: لماذا زيّـف بارت حقيقة النبيّ الكريم محمّد وظـنّ فيه ظنّ السـوء، والحال أنّه منزّه عن ذلك؟ أوليس القرآن كتـاب الله؟! لماذا أنزله منزلة

١. بارت، محمّد والقرآن، دعوة النبيّ العربيّ ورسالته، ٢٥٤.

الكتب البشريّة وهو كتاب الله الأعظم؟

ما تجدر الإشارة إليه هنا أنّ ما دفع هذا المستشرق المجتهد في العلم إلى تدوين مثل هذه الكتابات والأفكار المتهافتة هو خلل في تصوّر الغربيّين بصفة عامّة في فهمهم وتصوّرهم للدين الإسلاميّ ولشخص النبيّ محمّد والقرآن الكريم على وجه الخصوص؛ لذلك نجد أنّ هذه الافتراءات تتكرّر لدى العديد من العلماء الغربيّين.

يبدو أنّ تأثّر الغربيّين وإيمانهم المطلق بالعلم هو ما جعل بارت كسابقيه يساير الحقائق العلميّة ويقرّ بمشروعيّتها المطلقة، وهو ما جعله ينفي فكرة الوحي الذي نزل على النبيّ محمّد وأقرّها القرآن الكريم، ورغم حقيقة الوحي وأحقيّته إلّا أنّه رفضه في العديد من المواقف، وفي المقابل أقرّ بصحّة الوقائع التاريخيّة البشريّة ورفض القول بأحقّيّة الوحي الإلهيّ على النبيّ الكريم محمّد.

ما نخلص إليه بالقول هو أنّ المستشرق بارت قد جعل من أبحاثه تنأى عن القول بالتفسير الغيبي حفاظًا على القول بالمنهجيّة العلميّة ليعوّل في ذلك على بعض النصوص النقديّة التاريخيّة ومناهج علم الاجتماع الديني ومناهج النقد الأدبي التي تستخدم في تفسيرها للنصوص المقاربة البيئة أوّلًا.

ما هو جدير بالذكر أيضًا أنّ بارت لا يؤمن بصحّة المرويّات المذكورة في السُّنَّة النبويّة والقرآن الكريم، ولا يعترف بها على الإطلاق؛ لذلك كانت معظم كتاباته مليئة بالفجوات ونقاط الاستفهام التي تدفع قارئ كتاباته إلى البحث عن المعنى المقصود بمفرده أو إلى التخيّل بناء على بعض المعارف الحاصلة لنا حول الثقافة والفكر الإسلاميّ ككلّ الذي تناوله بارت بالدرس، ولكي يبرهن على منهجه فقد كتب ما يلي: «وعلينا أن نقتنع بأنّ القرآن لم يقدِّم لنا شيئًا ذا بال عن الأربعين سنة الأولى من حياة النبيّ، وفيما عدا ذلك ليس أمامنا إلّا التخيّل لقراءة ما بين السطور»[1]. وهذا يعدّ تجنّيًا وافتراءً صريحًا على القرآن الكريم وما ورد فيه من حقائق.

لا يختلف اثنان في القول بأنّ الاختلافات البيئيّة والحضاريّة بين بارت والمادّة التي تناولها

١. م. ن، ٣٩.

بالدراسة والتحليل لهما أثر بليغ على أفكاره وتصوّراته؛ لأنّه رغم محاولته اتباع الموضوعيّة العلميّة في أبحاثه، فإنّه لا يستطيع التخلّي التامّ عمّا تعلّمه وتربّى عليه من قيم وأفكار داخل المجتمع الحضاريّ الذي نشأ فيه، مضافًا إلى أنّه بحث ضمن لغة تعدّ من أصعب اللغات في العالم رغم إتقانه لها، وهي اللغة العربيّة التي لا تعدّ لغته الأم.

يبدو أنّ للبيئة التي ينتمي إليها بارت تأثيرًا كبيرًا على أفكاره التي دوّنها بشأن القرآن والنبيّ محمّد خاصّة، باعتباره سليل أسرة اشتغلت بالكتابات اللاهوتيّة من قبل، هذا فضلًا عن وجود قساوسة في عائلته كانوا وراء أفكاره التشكيكيّة حول صحّة القرآن ونبوّة ووحي الرسول الكريم محمّد، ما يعني أنّ أفكاره التعسّفيّة التي دوّنها ضدّ الدين الإسلاميّ كانت كامنة فيه بالقوّة؛ لأنّه تربى عليها منذ الصغر.

إنّ المتفحّص لأسلوب بارت في الكتابة يجد العديد من الأخطاء والمغالطات الخادعة خاصّة لغير المتقنين للّغة العربيّة، وخاصّة حينما يشكّك في بعض المسائل العقديّة، ويقدّم صورة مجانبة للحقّ ولا تمتّ للمسألة المتناولة بشيء، شأن ما ذكره مثلًا في قصص زواج النبيّ الكريم محمّد وغيرها من القصص الأخرى التي عمد إلى تفسيرها بشكل مغالط للواقع ولا يستقيم معه.

يبدو أنّ بارت قد استعمل في معظم كتاباته أسلوبًا في الكتابة يتّسم في ظاهره بالمدح، ولكنّه يخفي في ثناياه ضربًا من القدح الذميم، وهو ما يجعل من القارئ يسيء الفهم والتقدير للمسألة المدروسة إلى درجة أنّ بعض مَن يدركون تفاصيل القصّة أو الواقعة ينتابهم شكّ رهيب جرّاء الأفكار التي قرؤوها عنه، ولعلّ من بين القضايا التي طرحها هذا المستشرق قضيّة صدق الرسول محمّد ﷺ.

يبدو أنّ بارت في دراسته للقرآن الكريم قد اتّبع هو الآخر منهج الإسقاط، كما فعل غيره من المستشرقين الألمان، والمتمثّل في إسقاط نظريّات مخالفة لما هو موجود في القرآن الكريم واعتبارها موجودة فيه، شأن إسقاط العديد من القصص على حياة النبيّ محمّد، وكذلك إسقاط العديد من المفاهيم الدينيّة النصرانيّة اليهوديّة على النبيّ الكريم محمّد، شأن ترجمته لكلمة الأميّ، والتي تعني الشخص الذي لا يتقن القراءة والكتابة التي وصف بها الله النبيّ محمّد، والتي ترجمها

بــارت بنبيّ الوثنيّة ونبــيّ الكفرة، ورغم أنّ المعنى القرآنيّ واضــح وصريح ولم يكن خفيًّا على أحد، قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٧٨).

ومعلوم أنّ مبدأ التشــكيك في بعض المعلومات الصحيحة حول القرآن والنبيّ محمّد شأن مسألة الوحي قد جعلت من أفكار بارت ورغم اتّسامها بالموضوعيّة العلميّة تنحرف عن الحقّ وتنساق وراء المغالطة والشكّ في حقائق تاريخيّة ثابتة مرتبطة بالقرآن الكريم وعلومه.

ما تجدر الإشــارة إليه أيضًا وهو على غاية من الأهمّيّة والدقّة هو اعتباره أنّ القرآن الكريم مقتبسٌ من التوراة والإنجيل، أي إنّ القرآن الكريم بحســب بارت راجع في أســسـه ومضامينه إلى اليهوديّة والنصرانيّة، وهذا ما يجعل من الدين الإســلاميّ عاريًا عن الأصالة، وينفي ربّانيّة المصدر عنه، وهو قول منافٍ للحقّ والحقيقة الربانيّة التي لا تقبل الجدل الزائف والمنافي للحقّ.

مــا يُعاب على بارت أيضًا هو نفيه لســمة الوحي عــن النبيّ الكريم محمّــد واعتباره مجرّد تخمينات وتلفيقًا عاريًا عن الصحّة، وأنّ الله لم يكلّمه عن طريق الوحي، وإنّما محمّد كان يغالط قومه في حديثه عن الوحي.

فضلًا عن إنكاره لنبوّة محمّدﷺ واعتباره مجرّد قائد للقوم الذي ينتمي إليه، لذلك اعتبر أنّ القــرآن الكريم مجرّد كتاب تاريخيّ غير معجز؛ لأنّه في نظره من تأليف محمّد، وليس من مصدر إلهيّ ربّاني. وهذا طبعًا يعكس كيفيّةَ نظر الغرب إلى الدين الإســلاميّ في عموميّته، والإســلام على وجه الخصوص.

فما من شــكّ أنّ بارت قد بالغ في تشــويه الدين الإســلاميّ، خاصّة حينما زعم أنّ القرآن الكريــم كتاب الله العظيم قد أملاه النبيّ محمّدﷺ عــلى أصحابه، وقد اقتبس معانيه من التوراة والإنجيل، وهو ادّعاء باطل يُراد به التضليل على الحقّ وتشــويه صورة الإســلام والمسلمين في نظر غير المســلمين وحتّى المسلمين أنفسهم ممّن ثقافته الدينيّة محدودة قد ينتابهم الشكّ والحيرة في شأن دينهم.

فهذا التحريف والتزييف الذي ألحقه بارت بالدين الإســلاميّ وبرســوله وكتابه الأعظم القرآن الكريم، من شأنه أن يشكّل صورة مشوّهة عن الرسول الكريم الذي هو قدوة المسلمين

في الحيـاة، لذلـك توجّب على المفكّرين المسـلمين الغيوريـن على الدين الإسـلاميّ وتعاليمه الصحيحـة الـردّ على مثل هذه الشـبهات الزائفة والافتراءات الواهيـة وتصويبها لكي لا يتم تحريف الدين الإسـلاميّ، ونحن نعلم الحـقّ من الصواب لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْـرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

خاتمة

يبدو أنّ الدراسات الألمانيّة المهتمّة بدراسة الاستشراق بصفة عامّة قد بدأت تتحوّل إلى دراسات أنثروبولوجيّة، وذلك من خلال توجّهها نحو تصنيف الحضارة الإسلاميّة ضمن مفهوم الثقافة الخاصّ بالمجتمعات غير الغربيّة، وهو ما يُعاب به على هذه الدراسات التي تلتزم بالروح العلميّة الموضوعيّة في تناولها لهذا المبحث.

رغم بعض الموضوعيّة والحياد البارز في كتابات وترجمات المستشرق رودي بارت والتي جعلته يمتاز عن أسلافه في الفكر الاستشراقيّ، إلّا أنّه لم يلتزم بهذه الموضوعيّة بصفة مطلقة، لذلك لم تختلف كتاباته وترجماته للقرآن الكريم عنهم، والتي رغم اعتبارها الأفضل من كتابات أمثاله المستشرقين، فقد انزلق هو الآخر في متاهات الظنّ والافتراء والشكّ المريب في صحّة المعلومات الدينيّة المتعلّقة بالدين الإسلاميّ، وما اتصل به من قرآن ونبوّة محمّد.

ما نخلص إليه بالقول هو أنّ بارت قد تعامل مع النصّ القرآنيّ كنصّ أدبيّ قابل للتأويلات المختلفة، وليس نصًّا دينيًّا ذا قداسة تجعله ينأى عن التأويلات الواهية، والتي لا تمتّ للحقيقة بصلة، هذا فضلًا عن تعصّبه الواضح والصريح للمسيحيّة واليهوديّة، لذلك نجده في أكثر من موضع يقرّ بأنّ القرآن مشتقّ من كلا الديانتين، وهذا ليس بغريب عنه، وهو من ترعرع في عائلة القساوسة.

فما هو جدير بالذكر أيضًا، أنّه ثمّة العديد من الدوافع الكامنة خلف هذا الطرح البارتيّ للنصّ القرآنيّ الإسلاميّ ككلّ، لعلّ من أبرزها محاولته المماهاة بين الدين الإسلاميّ والدين اليهوديّ والمسيحيّ؛ لذلك كان يتصوّره دائمًا على أنّه مقتبس منهما، ولا يجوز له أن يكون متفرّدًا ومتميّزًا عنهما.

لائحة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ابن اسحاق، محمّد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني، السير والمغازي، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨م.
٣. ابن هشام، عبدالملك، السّيرة النّبوية، تحقيق، مصطفى السقا وآخرين، السعودية، دار المُغني، ١٩٥٥م.
٤. بارت، رودي، الدراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة: المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، ترجمة: مصطفى ماهر، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٩٠.
٥. ـــــــــــــــ، محمّد والقرآن: دعوة النبيّ العربيّ ورسالته، ترجمة: رضوان السيّد، دبي، مؤسّسة شرق غرب للنشر، ٢٠٠٩م.
٦. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٣، ١٩٩٣م.
٧. بكر، قحطان عدنان، «القرآن الكريم في الفكر الاستشراقيّ»، مجلّة دراسات، العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلّد ٤٧، عدد ٢، ملحق ٢، ٢٠٢٠م.
٨. البيهقيّ، أبو بكر أحمد بن الحسن (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، دلائل النبوّة، تحقيق وتعليق: عبد المعطي قلعجيّ، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٨٨م.
٩. الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الاستشراقيّة وأثرها على الدراسات الإسلاميّة، ج٢، مالطة، منشورات مركز دراسات العالم الإسلاميّ، ط١، ١٩٩١م.
١٠. جينكيز، جينيفر، الاستشراق الألمانيّ (المدخل)، ترجمة: غسان أحمد نامق.
١١. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن، دمشق، دار القلم، ١٤١٢هـ.
١٢. رشيدي، محمود محمّد حجاج، مناهج المستشرقين الألمان في ترجمات القرآن الكريم في ضوء نظريّات الترجمة الحديثة: دراسة لنماذج مختارة.
١٣. زين العابدين، محمّد سرور بن نايف، دراسات في السيرة النبويّة، بيرمنغهام، دار الأرقم، ١٩٨٨م.
١٤. شلتوت، محمود، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، ٢٠١١م.
١٥. الصغير، محمّد حسين، المستشرقون والدراسات القرآنيّة، بيروت، دار المعارف، ط١، ٢٠١٥.

١٦. الغزالي، محمّد، فقه السيرة، تحقيق: محمد ناصر الدين الالباني، دمشق ، سوريا، دار القلم، ط١، ١٤٢٧هـ.

١٧. قطاط، فريد، «ترجمة رودي بارت لمعاني القرآن: دراسة تقويميّة»، مجلّة التنوير، عدد١١، ٢٠٠٩م.

١٨. كرماني، نفيد، «حول إمكانيّة ترجمة القرآن»، مجلّة فكر وفن، عدد ٧٩، السنة ٤٣، ٢٠٠٤م، معهد غوته.

١٩. السباعي، مصطفى، السيرة النبويّة.. دروس وعبر، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥م.

٢٠. مغلي، محمّد البشير، مناهج البحث في الإسلاميّات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، الرياض، مركز الملك فيصل، ١٤٢٢هـ.

٢١. وازن، محمّد، الاستشراق والمستشرقون، مكة المكرّمة، رابطة العلم الإسلاميّ، ١٩٨٤م.

22. Paret, Rudi, Der Einbruch der Araber in die Mittelmeerwelt. Kevelaer, Rhld., Butzon & Bercker, 1949.

23. Said, Edward, Orientalisme, vintage books, New York, 1979.